الفصل الخامس عشر

جون ديوى (١٨٥٩ - ١٩٥٢)

ارتبط اسم جون ديوى بالمدرسة التى جعلت الطفل مركزها ، وليس جون ديوى هو مبتدع هذا الاتجاه Childcentered وإنما سبقه إليه عديد من المربين أضاف كل منهم حجراً فى بنائه . كما أن بعض معاصرى ديوى أسهموا بنصيبهم فى تدعيم الحركة . ولكن ديوى استطاع بسحر لمسة الفلسفية أن يخلق من هذه الأفكار وتلك نسيجاً متكاملا أضفى عليه معنى جديداً بنظرته هو وفلسفته ، ثم أخذ كل هذا ونزل إلى ميدان التطبيق العملى .

ولكى نضع النقط على الحروف ، فان الحركة التى تتخذ الطفل مركزاً للعملية التربوية . بدأت مع روسو الثائر ضد الشكلية المجردة ، ثم تناولها بستالوتزى ومن بعده فروبل ، وطورها ديوى(١) . ويقول ديوى إن هناك تشابهاً واضحاً بين آرائه وآراء فروبل . كما أنه تأثر فى أفكاره عن النمو كهدف التربية بآراء داروين فى أصل الأنواع . واستمد من دراسته لكتاب علم الفسيولوجيا لتوماس هكسلى صورة قوية عن وحدة الكائن الحى . كما أن دراسات وليم جيمس النفسية كشفت لديوى عن الصفة النشطة للخبرة . كما أن مباحث علماء النفس المعملين ممتزجة مع بصيرته الفلسفية كونت مدركه الثالث عن الطبيعة المتكاملة للاستجابات البشرية . وأخذ عن ستانلى هول الاتجاه الحديث فى علم النفس التجريبى . وكان هناك تأثير من نوع آخر ، فقد درس مذهب هربارت وهاجمه .

قام ديوى بالتدريس فى جامعتى ميتشجان ومينسوتا ، ثم جامعة شيكاغو عام ١٨٩٤ ، وبعد عامين أسس مع زوجته المدرسة المعملية أو التجريبية

---

(١) Knode, J.C. ; Foundatiods of an American Philosophy of Educatiod, p. 256 .

الملحقة بالجامعة ليطبق فيها آراءه التربوية . وأنشئت خمسون مدرسة على غرارها فى أنحاء أمريكا التى اكتسحتها النهضة الصناعية وما جرته معها من تغيرات اجتماعية وتطور فى قيم الناس . ومع زيادة الاهتمام فى هذه المدارس بتعلم الصناعات ، إلا أن اهتماماً كان أكثر وضوحاً نحو محاولات تدريب التلاميذ على التكيف الاجتماعى فى مجتمعهم المتطور . ولأول مرة يستخدم ديوى المقاعد المتحركة ، وفى رأيه أنه لكى تكون المدرسة ناجحة فيما تقوم به من تدريب فعليها أن تنظم على أنها شكل صادق من أشكال الحياة الاجتماعية النشطة ، ولا يجب أن تكون مجرد مكان يتلقى فيه الأطفال بعض المعلومات ، بل يتصل نشاطها بالمناشط الموجودة فى المجتمع الخارجى (١) .

بل أن ديوى يرى أن المعرفة الجديرة باسمها ، والتدريب الذى له قيمة يتطلبان اشتراك الطفل فى مختلف المناشط الاجتماعية اشتراكاً فعالا منتجاً . وهنا يعطى ديوى رأيه الذى طالما ردده وهو أن المدرسة ليست إعداداً للحياة ولكنها الحياة ذاتها . ويطلع ديوى على العالم بكتابه « كيف نفكر » ليقول بأن نتعلم بالعمل . ولم تكن مدرسة ديوى من هذا الصنف الذى يجلس فيه الأطفال ويستمعون منصتين ثم يحفظون ويرددون ما حفظوه .

وتولى ديوى عمادة (مدرسة) التربية فى جامعة شيكاغو عام ١٩٠٢ . وفى نفس السنة ظهر كتابه « الطفل والمنهج » ، وفيه يعلو صياحه ضد الطريقة التى تقدم بها المعلومات للأطفال ومضمونها ، فهو يرفض تقسيم عالم الطفل لأجزاء لا ربط بينها ... فالطفل والمنهج طرفان لعملية واحدة .

ثم ترك ديوى شيكاغو إلى نيويورك عام ١٩٠٤ حيث عين أستاذاً للفلسفة فى كلية المعلمين بجامعة كولومبيا حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٣٠ ، وكانت حياته تعج بالنشاط والحركة ، وتعدى تأثيره أمريكا للعالم ، فترجمت كتبه للغات كثيرة واستشارته الحكومة الروسية عقب ثورتها ليضع نظامها التعليمى على أسس تقدمية ، وزار محاضراً فى اليابان والصين وتركيا والمكسيك . ومن

(١) Dewey : DImocracy and Education, d. 416 .

بعض كتبه : علم النفس — عقيدتى التربوية — علم النفس والمنهج الفلسفى المدرسة والمجتمع — الطفل والمنهج — الأخلاق — كيف نفكر — مدارس الغد الديموقراطية والتربية — تجديد فى الفلسفة — الطبيعة البشرية والسلوك — الفن كخبرة — الخبرة والتربية — التربية فى العصر الحاضر.. وغيرها وغيرها(١)،(٢).

وينظر ديوى إلى المدرسة ووظيفتها الجديدة فى المجتمع الصناعى ، فهو يرى أن الثورة الصناعية قد حطمت الروابط الأسرية ، وكذلك الروابط الاجتماعية . وأصبح الطفل لا يعرف كيف يتم إعداد ما يحتاجه من طعام وكساء ومأوى . ووجد ديوى أن من وظيفة المدرسة أن تتخلى عن جانبها الكتابى وأن تقدم للطفل خبرات حيوية واقعية . وهو بذلك يحل مدرسة النشاط محل الاستماع ، وفى مدرسة النشاط يكتسب الأطفال الأخلاق والمهارات عن طريق الحياة والعمل فى مواقف فعلية .

والمدرسة ، فى رأيه من نتاج مجتمع ، وعلى الطفل أن يمر فى خبرات فعلية مرتبطة باحتياجات ومشاكل الحياة الاجتماعية . ولن تكون المدرسة جزءاً من الحياة الاجتماعية ولكنها هى الحياة الاجتماعية . ولذلك فيجب أن يشتمل المنهج المدرسى على كل مناشط ومشاكل المجتمع الاقتصادية والإجتماعية والسياسية ، بل يجب أن يشترك الأطفال فى الصراعات الاجتماعية والخلقية الموجودة فى مجتمعهم حيث أنهم يعيشون وسيعيشون فى هذا المجتمع . ولعل الهدف الأساسى للمدرسة هو تدريب تلاميذها على الحياة المشتركة التعاونية . ويتم هذا بما تقدمه المدرسة من أنشطة مختلفة ، وبما تعمله المدرسة على توجيه نزعات الطفل للإصلاح الاجتماعى خارجها . وسوف يكون التلاميذ ، باحتكاكهم المباشر بمجتمعهم ، فكرتهم عن النظام الاجتماعى .

---

(١) ترجمت بعض كتب ديوى إلى العربية مثل : الديموقراطية والتربية — الخبرة والتربية الطبيعة البشرية والسلوك — تجديد فى الفلسفة . . .

(٢) أنظر عرض الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى لحياة وفلسفة جون ديوى فى كتابة : جون ديوى .

وانتشرت آراء ديوى بين الأمريكيين وعبرت المحيطات إلى دول كثيرة ، وكان لها تأثير مباشر على طرق المشروع ودالتن ووينيتكا ، فقد أدخل عليها الكثير من الإصلاحات . فنجد مثلا أن طريقة المشروع أصبحت تقوم على رأى ديوى القائل إن العمل الكامل ينتج عن حاجة الفرد ، وحل لمشكلة تنبع من هذه الحاجة . وكان كلباتريك داعية لهذا التعديل فى الطريقة ، طريقة المشروع القائم على مشكلة وفيها تتمثل محاولة ربط الغرض بالتعلم ، ويفكر الأطفال بدلا من حفظ معلومات واستظهارها ، فهناك مشكلة تثير الاهتمام والتفكير . وقد اعتمد ديوى فى رأيه هنا على فهمه النفسى عن العقل والتفكير مشاركاً فى هذا الفهم ثورنديك . وكان هذا المفهوم عن عمل العقل مخالفاً لما نادت به الهربارتية ، وتبلورت فى خطوات الدروس الخمسة الشكلية .

ورأى كلباتريك وتلامذة ديوى أن التفكير الغرضى والعمل الهادف الذى ميز الطريقة الجديدة ، لهما مضامين سياسية . فهذا التفكير مرتبط بالحياة الحرة لمجتمع دتموقراطى . فاذا كانت المدارس مؤكدة للنظام الديموقراطى ، عاملة على خدمة المجتمع ، فمن واجبها أن تدرب التلاميذ على أن تكون لأفعالهم أغراض واضحة ، فان الحياة المثمرة هى تلك التى تسعى إلى تحقيق أهدافها . وهذه الأهداف اجتماعية والمواطن الصالح هو الذى يسلك وفى عقله أغراض اجتماعية .

ويرتبط اسم ديوى ارتباطاً وثيقاً بالبراجمانية (ويكتبها البعض البراغماسية) وحق علينا أن نفرد حيزاً لعرض الفلسفة البراجماتية ، وهى أمريكية ، فقد كان الأمريكى شارل بيرس Peiree أول من قدم كلمة براجماتية فى الفلسفة الحديثة عام ١٨٧٨ ، كما أن الفضل لوليام جيمس James فى التعريف بها والدعوة لها(١) . والطريقة البراجماتية وسيلة لحسم النزعات الميتافيزيقة التى لا تنتهى ، المادة أم الروح ؟ عالم واحد أم عوالم عدة ؟ ... إلخ .

---

(١) وودرنج (ترجمة سعد مرسى أحمد وفكرى حسن ريان) ؛ المرجع الأسبق ، ص : ٦٤ .

وتشتق كلمة براجماتية من الكلمة الإغريقية Pragma وتعنى « العمل » وتحاول الطريقة البراجماتية أن تنظر إلى النتائج العملية الفعلية للعمل . فاذا أردت أن تتبع الطريقة البراجماتية فعليك أن تبحث عن القيمة العملية للإجابة عن السؤال الآتى . ماذا ستجنى من العمل ؟ وبهذا تصبح الطريقة البراجماتية برنامجاً للعمل ، لا حلا للمشاكل .

ولكى يكون تفكيرنا صائباً فى أمر من الأمور فما علينا إلا أن نقدر النتائج العملية المرتقبة ، والإحساسات التى ننتظرها ، والاستجابات التى نعدها ، ومجموع هذه التأثيرات المنتظرة هى التى تكون مفهومنا عن هذا الأمر .

ولا تؤيد البراجماتية نتائج معينة ، لأنها مجرد طريقة ، اتجاه فى العمل يتطلع إلى النتائج والحقائق والثمرات . وسوف تدهش عندما ترى الكثير من المشاكل الفلسفية تتساقط هاوية إلى درجة التفاهة فى اللحظة التى تخضع فيها هذه المشاكل للسؤال البسيط عن نتائجها الملموسة المحسوسة .

وقد هاجم كثير من الفلاسفة النظرة البراجماتية قائلين إنها ليست فلسفة ، وإنما هى وسيلة للهروب من الفلسفة . على أن للبراجماتية صدى شعبياً كبيراً ، فقد ظهرت وسط قوم طالما آمنوا بالقيمة المدفوعة النقدية ، أكثر من إيمانهم بالتأمل . فقد خرج المستوطنون فى الأرض الجديدة مقامرين ومغامرين ومتعرضين لأخطار غير متوقعة من هنود حمر وتقلبات الطبيعة وثوراتها . وبخروج المستوطنين وانغماسهم فى حياة جديدة تطلبت أن يعمل كل فرد ويسهم وينتج ويدافع ويبنى ويتعرض للمخاطر ويسهر الليل ويحارب ... مع هذه الحياة تكونت قيم جديدة هرت القيم القديمة التى حملها المهاجرون معهم الإنسان بعمله لا بالطبقة التى ينتمى إليها ، وسقطت العادات والتقاليد أمام حتمية الواقع المتحدى (١) .

---

(١) Kallen, H. in : Selections from the Encyclopaedia of the Social Sciences, p. 307 .

وعندما نادى بيرس وجيمس بالآراء البراجماتية إدعى كثير من الأمريكيين أنهم كانوا طوال حياتهم براجماتيين دون أن يعرفوا هذه الحقيقة . وتوج جيمس على عرش الفلسفة الأمريكية . على أن العالم قبل فلسفة ديوى كشكل من أشكال البراجماتية ، واتخذ لها ديوى اسم الأداتية Instrumentalism أو التجريبية Experimentalism ولكن ديوى لم يعبر عن نفسه بنفس الوضوح الذى عبر به وليم جيمس . ومع ذلك فكان ديوى واضحاً فى قوله بان الأفكار أدوات أو آلات يستخدمها الإنسان ليكون علاقة فعالة مع بيئته ، وما الحقائق إلا تقريرات عن هذه العلاقات الفعالة ، وأننا فى تفكيرنا يجب أن نبدأ من احتمالات مؤقتة ، ويجب علينا أن نكرس أنفسنا للبحث عن أمثلة الأدلة واستخدامها ، وإذا أثبتت التجربة بطلان هذه الأدلة فيجب استبعادها . والعقل مجرد آلة نستخدمها فى البحث (١).

وتعتبر الفكرة أو المعتقد فى نظر البراجماتى توقعاً أو تنبأ ، ويقول جيمس أن صلاحية التنبؤ تتوقف على النتائج . وهل هى مرضية بالنسبة للشخص الذى ينتظرها . ولكن كلمة (مرضية) تبدو غامضة فى مدلولها . وأغلب الظن أنها تعنى حالة انفعالية يسر لها الفرد .

ومن هذه الفكرة خرج ديوى بايمانه بأهمية طريقة البحث والاستقصاء . وخير طريقة للبحث هى الطريقة العلمية . ومعنى هذا أن تتحول المدارس إلى مؤسسات يتعلم فيها التلاميذ كيف يقومون باستقصاءاتهم وبحوثهم ، لا أن يقبلوا نتائج أبحاث الغير .

ويتكلم البراجماتيون عن القيم ، وهى أساس الأخلاق ، ويقولون إنها لا ترتكز على مطلقات أو حقائق ثابتة ، والقيمة الصالحة هى التى تساعد الفرد على تكوين علاقة فعالة مع العالم ومع زملائه . والقيم فى تغير مستمر ، ولذلك فقيم عهد سابق لن تصلح ليومنا هذا . ويؤدى هذا إلى أن المدرس فى مجتمع متغير لا يجب عليه أن يعلم القيم ، وإنما يجب عليه أن يساعد الطفل على

---

(١) وودونج (المرجع الأسبق) ص : ٦٦

اكتشاف القيم بنفسه . ويلوح أن فكرة البراجماتيين عن القيم كانت رد فعل لاهتمام القرن التاسع عشر البالغ بالعلوم حيث انزوت القيم فى ركن مظلم .

وتأثر ديوى بالبراجماتية ، إلا أنه عارض جيمس الذى كان من أنصار مذهب التعدد والكثرة فى حين كان ديو من أشد المتحمسين للواحدية ، فلم يؤمن قط بثنائية العقل والجسم مثلا ، ولا ثنائية المادة والروح . وكان تأثر ديوى بالبراجماتية ظاهراً فى دعوته للأداتية أو كما عبر عنها بعض تلاميذه باصطلاحات عديدة مثل الوظيفية Functionalism ، والعملية Operationalism وغيرهما ، وكلها تلقى الأضواء على وصف الحياة بالدينامية والتغير . وفى رأى جمهرة المربين المعاصرين اعتبار فلسفة ديوى اجتماعية لأنها تحاول تفسير النمو البشرى كنتيجة لتعاون الفرد مع مجتمعه مع استبعاد كل المفاهيم الميتافيزيقية ؛ فان هذه المفاهيم فى رأى ديوى ، هروب من الوقع أو أنها من نتاج طبقة تمضى وقتها فى التأمل تاركة غيرها من الطبقات لفلاحة الأرض وتقطيع الصخور والوقوف أمام الأفران(١) . ومع أن ديوى لم يذكر كارل ماركس فى مؤلفاته فان من الواضح أن مفهومه عن الثقافة وأنها مرتبطة وناتجة عن الاقتصاد قد أثرت فى ديوى . كما أثر فيه المذهب الإيجابى لأوجست كونت . أما داروين ، فلا شك أنه تغلغل فى تفسير ديوى عن الحضارة .

واعتقد أن خيراً فى عرض أهم آراء ديوى التربوية ملخصة من أقواله فى عقيدتى التربوية » (٢).

أولا : فى ماهية التربية

كل تربية تقوم على مشاركة الفرد فى الوعى الاجتماعى للجنس البشرى ، وتبدأ هذه المشاركة تقريباً منذ الولادة بطريقة لا شعورية . ثم تظل تشكل قوى الفرد بصورة مستمرة بتغذية شعوره وتكوين عاداته وتهذيب أفكاره وتنبيه مشاعره وانفعالاته ، وعن طريق هذه التربية اللاشعورية يصل الفرد

(١) Uich, op. cit ; p. 322

(٢) من ترجمة أحمد فؤاد الأهوانى فى كتابه (جون ديوى) ، ص : ١٥٥ — ١٧٩ .

شيئاً فشيئاً إلى المشاركة فى التراث الذى نجحت الإنسانية فى التوفيق بين جانبيه الفكرى والخلقى . وبذلك يصبح الفرد وريثاً لما جمعته الحضارة من رصيد . وتنشأ التربية الصالحة المثمرة من إثارة قوى الطفل نتيجة شعوره بما تتطلبه المواقف الاجتماعية التى يواجهها ، فتنبهه هذه المطالب إلى العمل كعضو فى وحدة وإلى الانبثاق والخروج من محيط سلوكه وشعوره الضيق إلى إدراك نفسه فى جهة صالح الجماعة التى ينتمى إليها .

وللعملية التربوية جانبان : جانب نفسى وآخر اجتماعى ، ولا يمكن أن يخضع أحدهما للآخر ، كما لا يمكن إهمال أحدهما وإلا أضر ذلك بالعملية . والجانب النفسى أساسى ، فان غرائز وقدرات الطفل هى الركيزة ونقطة البداية التى تعتمد عليها تربيته ، ولذلك فما لم تتصل مجهودات المربى ببعض مناشط الطفل ، فان التربية تصبح ضغطاً من الخارج ، ويؤدى هذا إلى انحلال شخصيته أو وضع العراقيل أمام نموه الطبيعى .

ولما كان الجانبان النفسى والاجتماعى متصلين عضوياً ، فلا يمكن أن ننظر إلى التربية باعتبار أنها توفيق بينهما ، أو أنها تغليب أحد الجانبين على الآخر وقد قيل لنا أن التعريف النفسى للتربية جذب وشكلى ، من حيث أن هذا التعريف يقدم لنا فكرة عن نمو القوى العقلية دون أن يعطينا أية فكرة عن استخدام هذه القوى . ومن جهة أخرى يقال أن التعريف الاجتماعى للتربية هو تهيئة الفرد للتوافق مع الحضارة ، هذا التعريف يجعل منها عملية قهرية وخارجية ، وينتهى هذا الضرب من التربية باخضاع حرية الفرد لحالة سياسية واجتماعية مقررة من قبل ...

إن التوفيق الممكن الوحيد الذى نستطيع تقديمه للطفل فى ظل الظروف القائمة ، ذلك التوافق الناشىء من استخدام الطفل جميع قواه . ومع ظهور الديموقراطية وانتشار الظروف الصناعية الحديثة ، أصبح التنبؤ بما ستكون عليه الحضارة بعد عشرين عاماً مستحيلا(١) ، ومن ثم أصبح مستحيلا كذلك تهيئة الطفل لحالة معينة من الظروف .

---

(١) كتب د يوى عقيدته التربوية عام ١٨٩٧ .

إعداد الطفل لحياة مقبلة هو أن نترك له قيادة نفسه . ويعنى كذلك أن ندربه على استخدام جميع قواه استخداماً كاملا . وأن تكون عينه وأذنه ويده أدوات على استعداد للأمر ؛ وأن يكون عقله قادراً على إدراك الظروف التى سيعمل فيها ، وأن تدرب القوى المنفذة على العمل فى اقتصاد وكفاءة . ولن يبلغ الفرد هذا النوع من التوافق إلا حين ننزل قواه وأذواقه واهتماماته منزلة الاعتبار ، أى حين تتحول التربية إلى الناحية النفسية .

وتلخيصاً لما قيل ، فان ديوى يعتقد أن الطفل الذى نريد تربيته فرد اجتماعى ، وأن المجتمع وحدة عضوية مؤلفة من أفراد ؛ وإذا نحن أغفلنا العامل الاجتماعى من حساب الطفل بقينا أمام شىء مجرد ؛ وإذا أسقطنا العامل الفردى من المجتمع . لم يبق إلا جمهور بغير حركة أو حياة . ومن أجل ذلك كان لابد للتربية أن تبدأ بالنظر فى قوى الطفل واهتماماته وعاداته ، وكان لابد أن تضبط بالرجوع إلى هذه الاعتبارات . ولابد أن تفسر على الدوام هذه القوى والاهتمامات والعادات ، بمعرفة ما تدل عليه . ولابد من ترجمتها إلى نظائرها الاجتماعية ، أى إلى اللغة التى بها تستطيع القيام بخدمة إجتماعية .

ثانياً : فى ما هية المدرسة :

المدرسة هى أولا مؤسسة اجتماعية ، والتربية فى أساسها عملية اجتماعية . فالمدرسة صورة الحياة الجماعية التى تتركز فيها جميع تلك الوسائط التى تهيىء الطفل إلى المشاركة فى ميراث الجنس . وإلى استخدام قواه الخاصة لتحقيق الغايات الاجتماعية . لذلك كانت التربية عملية من عمليات الحياة ، وليست إعداداً لحياة مستقبلة .

يجب أن تمثل المدرسة الحياة الحاضرة ، الحياة التى تشبه فى واقعيتها وأهميتها للطفل حياته فى البيت ، أو البيئة المحيطة به . أو الفناء الذى يلعب فيه .

والمدرسة كمؤسسة يجب أن تبسط الحياة الاجتماعية الراهنة ، وأن تختزلها حتى تصبح وكأنها صورة أولية . والحياة القائمة فعلا تبلغ من التعقيد حداً يمنع الطفل من الاتصال بها دون أن يرتبك أو يتشتت انتباهه . فهو إما يذهل

لتعدد أنواع النشاط فلا يستجيب استجابة منظمة ، وإما أن تثيره هذه الأنواع من النشاط فتتنبه قواه إلى العمل قبل الأوان ويصبح فجاً فى عمله أو فى شخصيته .

وما دامت الحياة الاجتماعية مبسطة هذا التبسيط ، فينبغى أن تنمو المدرسة تدريجياً من حياة البيت ، فتتعهد ألوان النشاط التى ألفها الطفل فى البيت وتدفعها إلى الأمام .

على المدرسة أن تستعرض هذه الألوان من النشاط أمام الطفل ، وأن تعيدها فى هيئة يتعلم الطفل معناها تدريجياً حتى يتمكن من الإسهام ، وهذه ضرورة نفسية ، فهى الطريق الوحيد لضمان استمرار نمو الطفل وتهيئة أساس من الخبرة الماضية تنمو عليه الأفكار الجديدة التى تقدمها المدرسة ، وهى أيضاً ضرورة اجتماعية ، لأن البيت هو صورة الحياة الاجتماعية التى يربى فيها الطفل ، واكتسب من صلته بها عاداته الخلقية . ومهمة المدرسة أن تبسط وتعمق شعوره بالقيم المرتبطة بحياته المنزلية .

تدور التربية الخلقية حول فكرة أن المدرسة لون من الحياة الاجتماعية ، وأن أفضل تدريب خلقى وأعمقه هو الذى يحصل عليه المرء من الصلة بغيره ، صلة ملائمة فى وحدة من العمل والفكر . أما نظم التعليم الحاضرة بمقدار ما تفسد هذه الوحدة أو تغفلها ، فمن العسير عليها ، إن لم يكن مستحيلا ، أن تظفر بأى تهذيب خلقى صادق منظم .

يجب أن تكون حياة الجماعة هى السبيل إلى إثارة الطفل ورقابته فى عمله .. ولا يوجد المدرس فى المدرسة لفرض آراء معينة على الطفل أو لتكوين بعض العادات عنده ، ولكنه موجود كعضو فى الجماعة كى ينتخب المؤثرات التى سوف تؤثر فى الطفل ، ولكى يعاونه على الاستجابة الصحيحة لهذه المؤثرات ، ومهمة المدرس أن يقرر بما له من خبرة أوسع وحكمة أنضج ، كيف يتعلم الطفل نظام الحياة ، ويجب أن ينشأ نظام من حياة المدرسة ككل ، ولا يأتى مباشرة من المعلم .

ونقدر ونقيم عمل الطفل بقدر صلاحيته للحياة الاجتماعية ، وبقدر ما يستطيع أن يسهم به ، وبقدر ما يستطيع أن يناله من مساعدة من الغير ؛ هذا هو معيار للنجاح فى المدرسة وفى الامتحانات .

ثالثا : فى مادة التربية :

يعتمد تدريب ونمو الطفل على الحياة الاجتماعية التى تتقدم لجهود الطفل . إننا كمربين نتعب طبيعة الطفل ونجعل من الصعب عليه أن يحقق نموه الخلقى الصالح عندما نهجم عليه فجأة بمواد كالقراءة والكتابة والجغرافيا مما يكون بعيد الصلة عن هذه الحياة الاجتماعية .

وليس المركز الصحيح للربط بين المواد الدراسية هو العلم أو الأدب أو التاريخ أو الجغرافيا ، بل النشاط الاجتماعى الخاص بالطفل . ولا يمكن أن تتوحد التربية بدراسة العلوم ، أو ما يسمى بدراسة الطبيعة ، فالطبيعة نفسها وحدة ، بل هى عديد متفرق من الأشياء فى المكان والزمان ، وحين نحاول جعلها مركز العمل بذاتها إنما نتقدم بمبدأ إشعاع لا بمبدأ تركيز . وكذلك لا يمكن أن نجعل الأدب أساساً للوحدة ، ولو أنه يمكن أن يكون ثمرتها ؛ وليست للتاريخ قيمة تربوية إلا بمقدار ما يعرض من أوجه الحياة الاجتماعية ونموها ، وعندما يدرس على أنه مجرد أحداث الماضى . فانه يلقى فى أغوارها ويصبح ميتاً بغير حركة . أما حين يدرس على أنه سجل حياة الانسان الاجتماعية وتقدمه فإنه يصبح ذاخراً بالمعانى ... ولا يمكن أن ندرس التاريخ إلا إذا اتصل الطفل اتصالا مباشراً بالحياة الاجتماعية ... ويجب أن نجعل الطفل قادراً على أداء أنواع النشاط التى حققت الحضارة ما هى عليه .

النشاط الذى يسمى بالتعبير expressive أو الإنشائى Constructive هو مركز الترابط ، وهذا هو الذى يفسح المجال فى المدرسة لتعليم الطهى والحياكة والتدريب اليدوى .

والدراسات التى تقدم على غيرها على سبيل الترويح أو التسلية . أو على أنها أعمال إضافية ، لا تعد دراسات خاصة ، ويصح أن تعتبر كنماذج تمثل

أشكال النشاط الاجتماعى ، وأنه من الممكن ومن المرغوب فيه أن يكون تقديم المواد الشكلية إلى الطفل عن طريق هذا النشاط الإنشائى .

ويكون درس العلوم تربوياً بقدر ما يبرز المواد والعمليات التى جعلت الحياة الاجتماعية على ما هى عليه .. وقيمة العلم إنما تنشأ من أنه يمنح القدرة على تفسير الخبرة السابقة وضبطها . ويجب أن يقوم العلم لا على أنه مادة دراسية جديدة بل على أنه موضح للعوامل التى سبق أن تدخلت فى الخبرة الماضية ، وعلى أنه يزودنا بالأدوات التى بها يمكن تنظيم تلك الخبرة بشكل أسهل وأوقع .

واللغة أساساً وقبل كل شىء أداة اجتماعية . وهى سبيل التفاهم . فهى الأداة التى يشارك بها الفرد مع غيره أفكارهم ومشاعرهم .

لا يوجد أى تتابع فى الدراسة فى المنهج المدرسى المثالى . وإذا كانت التربية هى الحياة ، فلكل حياة منذ البداية جانب علمى ، وجانب فنى وثقافى ، وجانب خاص بطرق الاتصال بين الأفراد . فلا يمكن أن يكون صحيحاً أن الدراسات الملائمة لفصل مدرسى هى مجرد القراءة والكتابة ، وفى فصل أرقى هى الأدب أو العلوم . ليس التقدم فى تتابع الدراسات . ولكن فى نمو اتجاهات واهتمامات نحو الخبرة .

ويجب أن ندرك التربية على أنها تجديد مستمر للخبرة . وأن عملية التربية وغايتها صنوان .

رابعاً : فى طبيعة التربية :

ترتبط مسألة الطريقة بترتيب نمو قوى الطفل واهتماماته . وتعتمد معالجة ووسائل تقديم المادة للطفل على طبيعة نموه ، ولذلك فان ديوى يلقى أهمية عظمى على الأحكام الآتية فى تحديد الروح التى تسير العملية التربوية .

يسبق الجانب الإيجابى الجانب السلبى فى نمو طبيعية الطفل فالتعبير يظهر قبل الانطباع الواعى . ويسبق النمو العضلى النمو الحسى ، والحركات سابقة للإحساسات الشعورية ... والحالات الشعورية تميل إلى إظهار نفسها فى حركة . إن إهمال هذا يلقى بالطفل فى أحضان اتجاهات السلبية ويجعله فرداً مستقبلا مستوعباً لما يلقى عليه . وفى هذا ضياع لوقت ومجهود المدرسة .

وتنشأ الأفكار من العمل . وتتطور من أجل سيطرة أفضل على العمل ، وفى محاولة تنمية قوى الاستدلال وقوى الحكم يجب تنظيم واختيار وسائل العمل الصالحة ، وإلا واجهنا الأطفال برموز لا تعنى شيئاً لهم لأنها فرضت عليهم من الخارج ، بل يجب أن تقدم لهم فى معنى . ويجب أن يشجع الطفل نفسه على تكوين المدركات والمفاهيم .

يجب على المربى ملاحظة اهتمامات الأطفال على أنها مظهر لحالة النمو التى بلغها الطفل . إنها تنبىء بالمرحلة التى سوف يجتازها . ومن خلال الملاحظة المستمرة لاهتمامات الطفولة يستطيع الراشد أن ينفذ إلى حياة الطفل ويعرف مدى واتجاه استعداده وتشوقه . ويجب أن نشجع اهتمام الطفل حتى ينمو حبه للاستطلاع ويقظته ومبادأته . إن السخرية من الاهتمامات هو استبدال العابر بالدائم ... وهذه السخرية هى الفشل فى النفاذ إلى القاع ... وثمرة هذا هى إحلال النزوة والهوى محل الاهتمام الأصيل .

لو أمكننا غرس عادات حسنة فى العمل والفكر تعتمد على الخير والحق والجمال ، لسارت الانفعالات من تلقاء نفسها فى الطريق السليم .

أعظم شر يصيب التربية بعد الجمود والبلادة والشكلية والروتين ، هو العاطفية . والعاطفية هى النتيجة الحتمية لمحاولة الفصل بين الوجدان والعمل .

خامساً : فى المدرسة والتقدم الاجتماعى :

يعتقد ديوى أن التربية هى الطريقة الأساسية للتقدم والإصلاح الاجتماعى . كل إصلاح لا يعتمد على قوة القانون ، أو الرهبة من بعض العقوبات ، أو التغيير فى التنظيم الخارجى أو الآلى ، فهو إصلاح عابر لا قيمة له . والتربية تنظيم لعملية المشاركة فى الوعى الاجتماعى ، وتوافق نشاط الفرد على أساس هذا الوعى الاجتماعى هو الطريقة الوحيدة المؤكدة للتجديد الاجتماعى ، هذه الفكرة تلحظ بعين الاعتبار كلا من الناحيتين الفردية والاجتماعية . فهى فردية لأنها تعترف بتكوين خلق معين على أنه الأساس الصحيح الوحيد للحياة الصالحة وهى اجتماعية لأنها تعترف بأن هذه الحياة الصالحة لا تتكون بالتعاليم والمثل

والنصائح الفردية فحسب ، بل بتأثير بعض صور الحياة الاجتماعية وحياة المؤسسات فى الفرد ، وأن الكائن الاجتماعى عن طريق المدرسة باعتبارها مؤسسة اجتماعية قد يحقق نتائج أخلاقية .

وفى المدرسة المثالية يتم التوفيق بين المثل الفردية والاجتماعية . وبالتربية يستطيع المجتمع أن يصوغ أغراضه الخاصة به ، وأن ينظم وسائله وموارده فيشكل بذلك نفسه فى غير إسراف وتشتيت ليسير فى الاتجاه المرغوب .

ومن مهمة كل شخص يعنى بالتربية أن يوجه النظر إلى المدرسة باعتبارها أساسية وخطيرة فى اهتمامها بالتقدم الاجتماعى والإصلاح ، كى يفتح المجتمع عينيه ليرى منزلة المدرسة وما تقوم به من عمل ، وينتبه إلى ضرورة منح المربى الحاجات الكافية لأداء مهمته بنجاح .

التربية على هذا النحو عنوان على أكمل وأصدق اتحاد بين العلم والفن يمكن أن نتصوره فى الخبرة الإنسانية .

وأرفع الفنون هو ذلك الفن الذى يشكل قوى الإنسان ويلائم بينها وبين الخدمة الاجتماعية ، وهو الفن الذى يقبل عليه خيار الفنانين .

مع نمو الخدمة النفسية التى تضيف إلى بصيرتنا معلومات أغزر عن التكوين الفردى وقوانين النمو ، ومع نمو علم الاجتماع الذى يضيف إلى معارفنا التكوين الصحيح للأفراد ، يمكن استغلال جميع الموارد العلمية لتحقيق أغراض التربية .

عندما يأتلف العلم والفن على هذا النحو ، ينطلق أقوى دافع إلى العمل الإنسانى ، وتتفجر الينابيع الأصيلة للسلوك الإنسانى ، وتضمن أفضل خدمة يمكن أن تؤديها الطبيعة البشرية .

ليست مهمة المعلم مجرد تدريب الأفراد ، بل تكوين الحياة الاجتماعية الصحيحة . يجب أن يعرف كل معلم كرامة مهنته ، إنه خادم اجتماعى انفرد بحفظ النظام الاجتماعى الصحيح ، وتأمين النمو الاجتماعى الصادق .

وعن هذا الطريق فالمعلم دائماً هو رسول الحق والهادى إلى ملكه .